قصة

الخولى القديم

جعل الشيخ قبلان يطوف بارجاء حديقة آل هاشم مودعا المكان الذى نشأ فيه ورعاه منذ طفولته . وهو من عائلة تولى اسلافها هذا المنصب بالتوالى فماخرج منهم منذ أجيال ، فلما مات أبوه الذى كان يعرف كل شبر فى الضيعة تولى الشيخ قبلان وظيفته . وقدكان ذلك منذ اربعين عاما ،والآن قد عادت به الذكريات الى أيام طفولته حين كان ابوه يأخذه بيده وهو حامل السلة بالأخرى فما يرى عودا غريبا من النبات الا وقف أمامه متأملا فاما عرف اصله أوسأل اباه عن حقيقته

كان اليوم يستعيد تلك الذكريات وما تلاها فلما تزاحمت الأفكار فى رأسه تصدعت بالالم . وبالرغم من انه كان يعلم — حين قرر الخروج من الضيعة — أنه سوف يألم لمغادرتها فأنه ما كان يحسب ان سيصل به الألم الى هذا الحد الذى جعل يعانيه وهو يطوف بارجائها . . لقد كان كأنه نبت من تلك الارض أو شجيرة من أشجارها وروح من أرواحها ومع ذلك فهاهو ذا يغادرها الآن بمحض رغبته ومشيئته وهو الذى لم يرمن مفاجآت العالم ومغامراته إلا حبة من نبات نادر يودعها بطن الارض فتفاجئه عود لم ير له من قبل مثيلا . . أوعاصفة تهب فجأة فتتطاير بعض الاغصان أو الازهار التى كان يترقب بشوق نموها واكتمالها . . اوأمطارا كثيفة تهطل فترخى الارض وتميد بما فوقها من زرع يافع . هذا وذاك وما ماثلهما من مفاجآت هو النوع الوحيد الذى كان يثير اليأس والأمل والخيبة والنصر فى نفس الشيخ قبلان حتى يوم صدور قرار بأن يغادر عزبة آل هاشم ثم يوم وقوفه وتجواله ليتزود مما احب بالنظرة الاخيرة . ومامن شك ان حزنه وألمه كانا يتفاوتان عند ما كان يقف مودعا هذه الخيلة اوتلك المجموعة من الأزهار والرياحين بقدر ما فى نفسه لكل منها من منزلة واعتبار وذكرى قديمة اوحديثة . . بل لقد كان يستطيع ان يحس خلال ألمه المضمض بشىء من السرور والاعجاب إذ كان يرى زرعة تكاد تبتسم له كأنها تنطق له بالشكران لتعهده اياها حتى بلغت ما هى فيه من جمال وفتوة .

واكثر ما كان يفكر فيه اثناء ما تساوره تلك الغبطة أنه إذا رجع بعد عام أو عامين سيرى تلك الزرعة أجمل وأقوى مما هى الآن ، لاسيما و هو الذى تعهد الخولى الذى سيخلفه وانشأه على غراره

وكان يقف الحين بعد الحين ليلقى تعليماته على هذا البستانى او ذاك وقد أمضى اكثرهم سنين كثيرة يشتغلون تحت إمرته . والعادة صنو الغريزة . لذلك كان (والوقت بعد الظهر) يوزع العمل بينهم لصباح اليوم التالى الذى كان سيغادر الضيعة فى باكورته ، لكن العمال كانوا يصغون له بملء الاحترام بالرغم من أنهم كانوا قد تلقوا تعليماتهم من خلفه . .

وأدى به المطاف الى خميلة كان ذلك الخولى القديم قد أفنى فى تنسيقها وتنميقها فنه ومهارته وتوجها بواو (و) من السندس الأخضر المزركش بالأزهار البنفسجية والحمراء والبيضاء فى انتظام وانسجام فائقين ، فوقف يتأمل الخميلة بعين الشيخ الذى تتلاحق الذكريات فى مخيلته فتثير فى نفسه الاسف والاسى على عهود مزدهرة حجبتها السنون بدورانها . . استذكر اليوم الذى غرسها فيه والاعوام التى قضاها يتعهدنموها ويشذب من اطراف الواو التى هى الحرف الأول من اسم (وفيق بك) صاحب العزبة السابق الذى كان الشيخ قبلان يكبره بسبع سنوات وقد غرس أول بزرة فى فى تلك الخميلة يوم ولادته تحت اشراف ابيه وارشاده . . وقد أخذ الشيخ قبلان يفكر الآن فى عجب لماذا لم يفعل لدى ولادة البك الصغير مثلما فعل لدى ولادة ابيه مع انه كان وقت هذه طفلا غريرا ومساعد بستانى ، وساعة تلك كبير الخوليين ! ! أكان يحس حقيقة بما سوف يحدث ؟ ؟

واطال الشيخ قبلان الوقوف بين يدى الخميلة الحافلة بالذكريات وهو غارق فى لجة عميقة من التفكير والاسى حتى انه لم يشعر بقدوم رفعت بك مالك الضيعة الجديد ووقوفه بالقرب منه متأملا ! !

وكان رفعت بك ملماً بطرف من قصة هذه الخميلة ، عارفا بما يشير اليه حرف الواو البديع الذى يتوجها . فلم يكن من الصعب عليه ان يدرك انصراف ذهن الخولى القديم فى وقفته امامها نحو ما تثيره من ذكريات . لذلك وقف رفعت بك على قيد بضعة امتار منه يتأمله بعين الاعجاب والحيرة بينما كان قبلان واقفا لايبدى حركة كأنه تمثال منحوت . . . وشيئا فشيئا تحول شعور رفعت بك الى خشوع ورهبة

حتى لقد خيل له أنه ليس بذى حق فى وضع يده على الضيعة التي اشتراها ، وان صاحب هذا الحق و الاولى به منه هو ذاك الشيخ الواقف أمامه . وأوشك ان يعود أدراجه تاركا الشيخ يناجى ذكرياته ، ولكن حانت من الشيخ قبلان التفاتة صدته عن عزمه فتقدم من الخولى متئدا قائلا فى صوت متهدج : « اراك تتزود من غرسك بالنظرة الاخيرة ؟ »

أجاب قبلان — نعم يامولاى ، و أنه لفراق مؤلم !

قال رفعت بك — ولماذا لاتعدل عن قرارك ياعم قبلان وانت تعلم انى اود بقاءك ؟ لست اريد منك أن تقوم بأى عمل لانك حقيق بان ترتاح فى هذه السن ، على أنك سوف تبقى رئيس البستانيين تصدر اليهم ما يعن لك من تعليمات فلا تتغير مكانتك عن سالف عهدك الا حين تجد نفسك فى حاجة الى الراحة . فهل انت موافق على البقاء معنا ؟

— اشكرك ياسيدى و لكنى لا اري مناصا من ان اذهب ، وارجو ان لايؤول ذلك بأى معنى من معانى نكران الجميل فأنى . . . يجب أن أذهب . .

وسكت الشيخ قبلان و سكت رفعت بك هنيهة وان كان قد بان على هذا الاخير كأنه يجن شيئا فى نفسه ، ولكنه لايدرى اذا كان يجدر به ان يصرح به أو يكتمه . . وأخيراً فضل الأولى فقال :

— أسمع ياشيخ قبلان . . اريد ان اسألك عن أمر وأريدك ان تجيبنى عليه اجابة رجل لرجل . . مما لاشك فيه ان خروجك من العزبة ليس بالأمر الهين عليك فضلا عما يترتب عليه من تغيير فى نظام حياتك . . فهل انت مغادرنا لانك تريد هذا التغيير ؟ ام لديك سبب آخر لعله انك لاتطيق ان ترانى ما لكا للعزبة بعد آل هاشم ؟

فرفع الشيخ قبلان رأسه فى إباء وشمم قائلا :

— كلا ياسيدى . . لاهذا ولاذاك ، واشهد الله أنى ماشككت فى نبلك قط منذ رأيتك لاول مرة

فتنهد رفعت بك تنهيدة أزاح بها عن صدره ما كان جاثماً عليه من عبء ثقيل ،

ولكنه عاد الى تفكيره فيما عسى أن يكون السبب الذى حمل الخولى على الاصرار على مغادرة العزبة التى نشأ فيها وأفنى فى تربتها جهوده !

ورفعت بك كان من الرجال العصاميين ، أنشأ نفسه وحالفه النجاح فى جميع أعماله وخطواته ، وما كان يجهل هذه الحقيقة أو يخفيها على أحد ، بل لقد كان يفخر بها فى غير ما عجب ولا زهو ولا غلو فى تقدير نفسه . ولم يكن شراؤه ضيعة آل هاشم وقصرهم المنيف بحديقته الغناء وليد رغبة منه للباهاة والمفاخرة ، وانما هو قد أقبل على شراء تلك الصفقة لما وجده فيها من مزايا قل أن تجتمع فى غيرها

على أن موقفه فى تلك اللحظة أمام الشيخ قبلان كان موقفا عجيبا حقا ! فهو قد كان محوطا بالكثيرين ممن يعيشون من فتات موائد الاغنياء وهؤلاء لا أدب لهم إلا كيل المديح والاطراء بالاردب والقنطار لمن يتوسمون فيه السمن والبدنة ، حتى يغدق عليهم من فائض دهنه ما يشبع جوعهم ويؤمن خوفهم . كما كان له الى جانب هؤلاء طائفة من الاصدقاء الصادقين لا يمنعهم اعجابهم به من أن يبدوا له الرأى الصحيح أو ما يعتقدون أنه الصحيح ولو خالف رأيه . ولكن رفعت بك فى تلك اللحظة كان مسودا بسلطان أقوى من سلطان المداحين والاصدقاء على السواء . كان يعتقد أن الحكم الذى يصدره عليه الشيخ قبلان هو الحكم الصحيح الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . لقد كان ذلك الشيخ حكيما وإن لم يكن عالما أو متعلما وقد استمر قائلا : « كذلك نجلك ياسيدى لا يفتأ يتفقد المكان معتنيا عناية ما عليها من مزيد بتفهم كل ما يقع عليه نظره فاذا لم يدركه بنفسه لم يأنف أن يستفهم عنه من هذا البستانى أو ذاك فى رقة ودعة فائقين ، بعكس البك الصغير — يعنى ابن المرحوم وفيق بك هاشم — الذى لم يكن يهمه قط أن يلم بشىء عن الزرع والضرع مع أنه قد ولد ونشأ هنا وكان هو الاجدر بالعناية بشؤونه من كل من عداه كما كان المرحوم والده »

وتنهد الخولى تنهيدة صامتة وتقلصت أسارير وجهه وزاغ بصره كمن يحدق فى تضاعيف الماضى البعيد الغور وبعد هنيهة قال رفعت بك :

— يظهر أن هاشم بك الصغير لم يكن يمكث هنا طويلا لانه أخبرنى أنه يفضل الاقامة فى القاهرة ؟

— هذا صحيح ياسيدى فهو حليف أندية الميسر والرقص وغيرها من الملاهى

فلم يكن يجد من الوقت فسحة ليحضر الى هنا اللهم إلا أن يكون برفقته طائفة من لداته أوصويحباته، فاذا حضروا قضوا الوقت القصير الذى يقيمونه هنافى معاقرة بنت الحان ولعب القمار وما الى ذلك من لهو دنيء سافل . وكان أبوه رحمة الله عليه لايخفى امتعاضه من مسلك ابنه ولكنه كان يكظم غيظه لاسيما بعد أن يئس من عدول ابنه عن خطته العوجاء وسيره الضال . كذلك كانت والدته التى قبضها الله الى رحمته منذ خمس سنوات ، وبعد وفاتها كنت إذ أسير الى جانب المرحوم أبيه اسمعه يقول ـ كمن يتحدث الى نفسه ، من يدرى ماذا يكون مصير العزبة من بعدى ؟ »

ـــ وإذن فقد كان وفيق بك يائسا من اقامة ابنه فى هذا القصر من بعده ؟

ـــ هذا صحيح . ولكنه فى الحقيقة لم ييأس منه إلا بعد أن حافظ البك الصغير على عاداته بعد بلوغه سن الثلاثين . أما قبل ذلك فقد كان رحمه الله يحسب أن ابنه لن يلبث أن تطفأ فيه حرارة الشباب ونزواته حتى يسأم عيشة اللهو ورفاق السمر المضر فيقفل راجعا الى العزبة وهو أكثر معرفة بالناس بمالو قضى أيام شبابه فى الريف . . ولكن البك الصغير عندما بلغ الثلاثين ثم جاوزها ولم يزدد إلا انغماسا فى شهواته وملذاته ضاع أمل أبيه فى اصلاحه ، وبدأ يفكر كما ذكرت لك فى مصير العزبة من بعده . ولكن الحق ياسيدى رفعت بك أن البك الصغير شاب ظريف . لايفارقه الابتسام بل الضحك والقهقهة . أو هو كما يقول المثل : لايبالى اخربت أم عمرت ، ومع أنه كان إذ أراه صدفة يظل يتحدث الى حتى يصاب رأسى بالصداع فان كلامه كله كان خليطا عجيباً لاتخرج منه بنتيجة ، وكان ينظر إلى كأنى من « البله القدماء » ومن كان هذا شأنه لايلتفت الى رأيه ولايؤبه بمشورته ، لذلك كان يقابل كلامى بالضحك والسخرية عندما كنت أحاول أن أبين له عظمة هذه الضيعة والقصر اللذين سوف يؤولان له . (واستند الشيخ قبلان الى الشجرة القائمة عند مدخل الخيلة ثم استتلى قائلا) ولكنى أؤكد لك ياسيدى أن البك الصغير بالرغم من هذا كله رجل نبيل شريف العواطف دقيق الحس كريم الاخلاق ، لم يخرج قط على تلك الخلال الجميلة والخصال الحميدة منذ نعومة أظفاره . .

قال رفعت بك ـــ وإذن فانت تغادر العزبة لانك تمتعض من تصرف البك الصغير ولا تريد أن تبقى فيها بعد خروجها من يد آل هاشم ؟

أجابه الشيخ قبلان — هذا صواب من بعض الوجوه ، ولا أخفى عليك ياسيدى أنى صدمت صدمة شديدة اذ لم يكد البك الكبير ينتقل الى الرفيق الاعلى حتى باع البك الصغير العزبة عن بكرة أبيها دون روية أو تفكير ! ! . وحينئذ شعرت أن خاتمتى قد حلت لاسيما أنه ليس هنا أحد من أولادى ليشجعنى على البقاء . . على أن عدم وجود أولادى هنا ليس معناه أنهم هجروا فلاحة الارض ، كلا ، فأن اثنين منهم يشغل كل منهما وظيفة خولى فى عزبتين كبيرتين احداهما فى البحيرة والاخرى فى الدقهلية ، أما ولدى الثالث فمع أنه يشتغل كاتبا فى إحدى الدوائر بالقاهرة فانه يقيم فى منزل بالجيزة وقد استأجر قطعة أرض بجوار منزله فأنشأ بها حديقة غناء يقوم على فلاحتها بنفسه ، وهو الذى سأذهب لاقيم معه واقضى مابقي من أيامى فى العناية بحديقته

قال رفعت بك — ولكنها سوف تتراءى لك صغيرة بالنسبة الى هذه الضيعة !

أجاب الخولى — هذا صحيح ، ولكن الشباب لايعود ، وقد لا استطيع فى الايام المقبلة أن أفيها حقها من الخدمة .. غير أنى سأكون سعيداً بجانب ولدى البار الصالح . وهو متزوج من سيدة فاضلة وله منها ولد وبنت انشأهما ابواهما على أحسن منوال ، فمن يدرى ؟ ربما أمكننى أن أقوم بتربية أحدهما أو كليهما على حب الارض وفلاحتها فلا ينقطع بروز البستانيين من عائلتنا

— يسرنى ياشيخ قبلان أن أعرف انك سوف تجد الراحة والسعادة فى اقامتك مع ابنك كما اتمنى لك تحقيق رجائك فى تنشئة أحفادك على غرارك . . وإنما أحب أن أصرح لك أنه يجب عليك أن تعتبر هذا المكان مكانك فتحضر اليه فى أى وقت تشاء. ورجائى أن تكثر من زيارتنا فى كل فرصة

وسكت رفعت بك ينتظر الجواب وكان يخشى أن يكون رفضا فتتحطم آماله إذ يكون ذلك الرفض بمثابة حكم من الشيخ قبلان ضده بأنه مغتصب للضيعة ان لم يكن من وارثها « البك الصغير » فمن الشيخ قبلان الخولى الذى أفنى آباؤه وأجداده جهودهم من قبله حتى بلغت الضيعة مرتبتها الحالية من غناء الارض وخصب تربتها . . وبعد صمت خيل لرفعت بك أنه قطعة من الدهر بدأ الشيخ قبلان يتكلم قائلا :

ـــ أشكرك ياسيدى رفعت بك على طيب عنصرك وكرم أخلاقك وأؤكد لك أنه يسرنى حقيقة أن تتاح لى زيارة هذه العزبة كلما سنحت لى فرصة لزيارتها ، وأؤمل أن أعود قريباً لزيارتها كما أرجو . . .

ثم رفع بصره الى الخيلة كأنما يريد أن يناجيها برجائه الأخير . ثم خفض بصره وعاد يقول :

ـــ أرجو .. أن لا أكون قد ازعجتك بحديثى وشجونى !!

وكان رفعت بك قد لاحظ الحركة التى أتاها الخولى القديم بالنظر الى الخيلة كأنه يناجيها . وادرك بفطنته ان ما كان يجول فى صدره آنئذ من رجاء هو أن تبقى تلك الخيلة على حالها محافظة على ذرى من زرعت يوم مولده وهو المرحوم وفيق بك الذى كان آخر فرد فى آل هاشم حفظ تراث أجداده وادخل عليه من التحسينات والاصلاحات ماهو جدير به تبعا لسنة التطور والارتقاء ، على ان الشيخ قبلان ان لم يكن قد صرح برجائه الذى جاش به صدره فما ذلك إلا لدقة فى الاحساس وسمو فى العواطف منعاه من ان يبدى تلك الملاحظة التى قد يكون فيها جرح لاحساس رفعت بك إذ يجده لايفتأ يشير الى أصحاب العزبة الاقدمين . ولكن رفعت بك أدرك كل ذلك فمد يده للشيخ قبلان مودعا قائلا :

ـــ ثق ياشيخ قبلان انى أكون سعيدا بزيارتك فى كل وقت وآن ، ولن تجد إن شاء الله أى تغيير أو تبديل فيما زرعت يداك لاسيما هذه الخيلة الجميلة . وانى تاركك الآن لاتمام جولتك ، وأرجو لك السعادة والهناء .

وعاد رفعت بك الى القصر ، ووقف الشيخ قبلان قبالة شجرة « الواو » يتأملها والشمس تنحدر عنها إلى المغيب . .